أثر الفكر الوجودي الغربي في أحكام د. عبد الرحمـن بدوي النقدية (الشعر الوجودي كنموذج)

د. فريدة غيوة*

يتناول هذا البحث النزعة الوجودية في أفكار بدوي النقدية، حيث يثير قضية أساسية تتعلق بالشاعر الوجودي وكيفية إحيائه لحاضر أبدي، بعد معايشته لتجربة حية خصبة أثرت على كيانه وعلى وجدانه كإنسان منفعل مع المحيط ومع التاريخ والزمان حيث يعمل جاهدا على تجاوز لحظاته الزمانية لتكوين المجد الحضاري الذي يأمل في تحقيقه عن طريق اللغة.

فالشاعر الوجودي يأخذ على عاتقه مهمة خلق اللغة... ذات الوظيفة التعبيرية - الجمالية - الانفعالية، التي تمتد جسرا تعبر عليه الإنفعالات والإحساسات وإثارتها عند المتلقي.

إن هذه الوظيفة التعبيرية لا تحدد الأشياء في دائرة مغلقة، ولا تصور الواقع كما هو، لأنها ليست لغة منغلقة على ذاتها تدور على محور ثابت يحدد الدلالة، فهي لغة فردية ترفض التحديد والتعريف، كما أنها تنفر من اللغة العامة أو لغة الجمهور (بالتعبير الهيدجيري)، فهي لغة ثورية تهوى المخاطرة والمجازفة وهي قادرة على قول "لا" في كل مكان وزمان. ويكون ذلك عن طريق ملامسة الموسيقى ونبض الوزن في عروقها.

فمهمة الشعر الوجودي لا تتمثل في الإشارة إلى الأشياء وتسميتها بأسمائها وإنما مهمته أن تخاطب "الآنية" خيالها وعواطفها وتطوراتها عن طريق اللغة، فمهمته تنبعث في ضمير الشاعر الذي يخلق طينتها ويمنحها تركيبا وانسجاما جديدا يعبران عن الانحراف الذي هو في حد ذاته إبداع.

إن أثر الفلسفة، الوجودية في نقد بدوي للغة الشعر جعله يؤكد على أن هذا الأخير ليس إلا معاناة روحية موصولة، يصحب فيها الشاعر ذاته، ويعيش متفتح النفس حيث ينبض قلبه مع واقعه المعاش ومع حياته بكل ما فيها من عمق ومعنى ويحاول - في هذا المجال - مثله مثل

* أستاذة بقسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري - قسنطينة.

إن المصير الإنساني لا يمكن اكتشافه إلا إذا عاد الشاعر الوجودي إلى الزمان، وإلى تعقله لأنه يترك في وجدانه آثار الأفعال الجزئية التي حققها في حياته. وهذه الأفعال كلها تعبر عن تاريخ وجوده هو، وعن تاريخ الوجود الإنساني. وهي تحمل في طياتها دلالة زمانية، إذ تكشف من جهة عن التوتر في الزمان، ومن جهة أخرى عن وجود مشروع يرمي إليه الشاعر، ويتمثل في محاولة الاكتمال الوجودي في الزمان. فكيف يتم هذا الاكتمال إذا كان الشاعر يعيش التوتر في الزمان؟

أ – الزمان والتوتر:

الشعر الوجودي يعبر كما بينا عن الذاتية التي ترادف التغيير والإبداع المستمر، ومن ثمة فهي زمانية ما دامت تحقق ذاتها في لحظات زمانية. والتحولات التي تخضع لها الذات الشاعرة، تفرض عليها تجاوز ذاتها، وهي كلها عمليات تكشف عن مصير ذاتي يكون في الزمان، ويكون أيضا متعلقا بإرادة الشاعر وحريته.

فالمصير الوجودي – بهذا المعنى – يكشف عن الحرية من جهة، وعن الإخفاق من جهة أخرى، لأن الذات الشاعرة أو الشاعر يعيش التحولات الوجودية، فهو في صراع مع ذاته ومع الزمان، من أجل تحقيق ما يصبو إليه (الماهية) وتحقيق هذه الرغبة ليس أمرا سهلا! لأن التوتر ينتابه في كل مرحلة من مراحل وجوده، فهو بالأحرى تهديد بالتوقف عن ممارسة التحقيق الذاتي. فالمصير الوجودي الذي يتغنى به الشاعر، هو بالتالي مصير مهدد بالفشل، لأن الواقع الإنساني متعلق بهذا المصير[14].

والشاعر الوجودي يعيش هذا التوتر، لأنه يجهل حقيقة وجوده، ومصيره متعلق بهذه "الوحدة المتوترة" – حسب اصطلاح بدوي – أعني أن الشاعر في صيرورته الوجودية لا يبقى سجينا لظاهرة معينة، أي أنه يتألم عندما يفشل، أو يسعد عندما يحقق نتيجة من نتائج أفعاله، كما أنه يحب الآخر، ويكرهه ويقلق أمام بعض المشاريع ويطمئن لبعضها الآخر، ويجازف ويخاطر، ويحس بالأمان في بعض الأحيان، فكل هذه القضايا المتقابلة والمتنافرة – التي يعبر عنها الشاعر – تشير إلى صراع بينه وبين ذاته، بين ذاته والموضوعات، بين ذاته والذوات الأخرى – وهي كلها عمليات تكشف عن المصير الوجودي المتعلق بكفاح الشاعر المستمر، فهي تكشف عن تضحيته وعزلته من أجل تحقيق أكبر قدر من الأفعال الممكنة. ومن هنا يتجلى نوع من الإيثار الذي سيخلق التناقضات، التي يتصف بها الشعر الوجودي أمام إمكانياته، متمثلة في الألم والسرور معا، وفي الحب الكاره، وفي القلق المطمئن وفي الخطر الآمن، وفي التهابط والتعالي وهي كلها تكشف عن الصراع غير المتناهي الذي هو قدر الشاعر الوجودي[15].

فالتقابل – بهذا المعنى – هو أساس التعبير الوجودي وهو إحساس يعيشه الشاعر، لأن الوحدة الذاتية تعكس هذا التقابل نفسه. والوحدة لا تعني التوقف عن الإبداع في فضاء الشعر، بل تعني عكس ذلك تماما، حيث أن كل تغير يحوي هذه الوحدة، هو مركب من تناقض بين مقولتين. ونتيجة لهذه الوحدة يبقى التوتر مستمرا. فطابع الوجود – الذي يعبر عنه الشاعر – هو التوتر في الزمان. الذي يكشف عن مصير تسوده الصدفة، أي أن الشاعر لا يستطيع معرفة نتائجه مسبقا، أو التنبؤ بها.

وجهل الشاعر بما سيكون عليه وجوده في الزمان هوكشف لحريته، لأنه لا يتوقف عن البحث وعن التغيير وعن التساؤل وعن الإبداع، فهو يتجاوز لحظاته الزمانية محاولا في كل مرة الإنتصار عليها وعلى ذاته، من خلال ما يكتبه وما يقوله وما يستشعره.

وقد وظف هذه الفكرة الفيلسوف الوجودي سارتر، حيث يذهب إلى الإعتقاد بأن الوجود مصاحب للتوتر، الذي يكون في الزمان[16]. فالمصير الوجودي هو مصير مقضى عليه بالمعاناة والقلق والإخفاق، هذا إذا نظرنا إليه من الوجهة السلبية. أما من الناحية الإيجابية فإنه يكشف لنا عن اكتشاف الشاعر لذاته، وحركاتها الدائمة التي لا يمكن أن تتوقف. وهذا يعني أن الشاعر يعيش حالة ملاشاة دائمة للحاضر، وشروع مستمر نحو المستقبل، فهو يعبر عن ماضيه وحاضره من خلال المستقبل، فهو يكشف عما هو موجود قصد الرفض والثورة والتجاوز والإبداع.

الخاتمة

إن آراء بدوي النقدية تكشف كلها عن محاولة تجاوز الشاعر للعالم والأشياء، حيث يجعلهما مواضيع للنظر والتأمل عكس الرجل العادي الذي يغوص في وسطها، ولا يفرق بينها وبين ذاته، من ثمة فهو يؤكد حريته وهذا ما يجعل الشاعر ناقدا لذاته أيضا، لأنه يعرفها على أساس أنها غير الوجود الذي فرض عليه من طرف الغير وأنه أيضا غير الوجود الضروري أو المقدر.

إن تحول الوعي إلى ذات أو آنية عند بدوي يعني أنه مستقل عن الموضوع والاستقلال يعني قدرة الشاعر على إبداع مخرج لوجوده وللوجود الإنساني كله الذي يتصف بالصراع والمنافسة، كما أنه يكشف عن الاستلاب والإغتراب والتشيء، وهي كلها مجموعة من الظواهر تنتاب الذات الإنسانية الشاعرة في تجربتها مع الحياة.

فالمخرج الذي يبحث عنه الشاعر الوجودي هو الفعل والحركة التي يتميز بهما عن الأشياء الثابتة، ولا يكون هذا المخرج إلا بوجود الشاعر في موقف. فبدوي يتحدث عن رد فعل أساسي للوجود القائم – هناك – الذي يريد – الشاعر من خلاله – إبراز حريته – وإعطائه دلالة ومعنى قصد تغييره.

فالشاعر الوجودي يعبر عن حالته وحالة مجتمعه، فهو يؤدي دوره في إيقاظ الشعور الفردي والجماعي، وفي هذا الصدد فهو لا يكتفي بمخاطبة ذاته وإنما يتجاوزها إلى مخاطبة المجتمع، أو الجمهور، من أجل إعطائه القدرة على تذوق شعره والتأثر به.

إن مخرج تحقيق الذات يكون بواسطة الكلمة التي هي تعبير عن خلق موقف درامي، عن رفع أقنعة، وكشف عن حضور الأصل باستمرار، من وراء الستار، هذا الحضور هو الحرية، الحرية، الحرية!!

الهوامش

(1) - عبد الرحمن بدوي: الإنسانية الوجودية في الفكر العربي، ط. وكالة المطبوعات بدار القلم، الكويت. 1982 ص 111.

(2) - مارتن هيدجر: في الفلسفة والشعر، ترجمة د. عثمان أمين ط. الدار القومية للطباعة والنشر ص 101.

(3) - د. م: معنى الوجودية، دراسة مستقاة من أعلام الفلسفة الوجودية. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت. 1967 ص 91.

(4) - المرجع نفسه ص 91.

(5) - المرجع السابق ص ص 92 - 93.

(6) - المرجع السابق ص 94.

(7) - المرجع السابق ص ص 120 - 121.

(8) - المرجع السابق ص ص 120 - 121.

(9) - عبد الرحمن بدوي: الوجودية والإنسانية ص 119.

(10) - عبد الرحمن بدوي: المرجع نفسه ص 126.

(11) - سعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث، مفهوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1984، ص 256.

(12) - د. وهب أحمد رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت ط. 1990 ص 185.

(13) - SARTRE, LETRE ET LE NEANT, ED. GALLIIMARD, PARIS 1958. P 359.

(14) - IBID P 708.

(15) - بدوي: الزمان الوجودي، ط 2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955، ص 164.

(16) - SARTRE, SITUATION I, LA TEMPORALITE CHEZ FAULKNER, PARIS, ED, GALLIMARD. 1984. PP 71. 72.